بسم الله الرحمن الرحيم

تفريغ المجلس (٠٠٩)

"الباب الثاني في ذكر البربر

هجرة البربر إلى ليبيا – أوصاف البربر وأخلاقهم"[١].

---

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

كنا توقفنا وانتهينا في قراءة الكتاب "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" للشيخ العلامة مبارك بن محمد الميلي رحمه الله عند عنوان "**هجرة البربر إلى ليبية**" وهذا بعد جولة طويلة خاض فيها العلامة رحمه الله في بيان أصل البربر، وذكر أن الذين كتبوا في هذا الموضوع أي في البحث عن أصل البربر سلكوا طريقتين: طريقة تعتمد على النقل والرواية، وطريقة تعتمد على الدراية، وبعد أن ذكر ما حوته طريقة الدراية، أشار إلى أن الأقوال التي انتهوا إليها بعيدة كل البعد عن الصواب، وأن منتحليها قد أرادوا أن يوجهوا أصل البربر توجيها مبنيا على نوع من السياسة التي كانوا يريدون أن يصلوا من ورائها إلى أغراض، ولا يزالون يفعلون ذلك إلى أيامنا هذه، وفينا سمّاعون لهم على كلٍّ، وفي بلدنا والله المستعان سمّاعون لهم.

الطريقة الأولى طريقة النقل، وطريقة الرواية، ذكر فيها أقوالا كثيرة، وعاد عليها بالنقض، وانتهى ولخص رحمه الله أن البربر يعد جنسا مستقلا، وأن هذه الأرض قد كانت إليها هجرات، وهاجر إليها الكثير، وخالطوا وساكنوا وعايشوا البربر مما أدى إلى وجود بعض آثار أولئك، ولكن صبغها البربر بصبغتهم، فهذا مما يدل على وجود بعض تلك النزعات أو نزع من أولئك الأصول، لكن لا يدل هذا على أن أصل البربر من غيرهم، بل هو جنس وأصل مستقل.

هذا في جملة ما ذكره، وكذلك في طريقة الرواية والنقل ذكر قولا، وقد أشار إليه كثير من النساب في أن البربر قد يكون أصلهم يرجع إلى العرب، فبين قائل إنهم من حمير، قبائل يمنية، وبين قائل في أنهم من كنعان، هذا قول أيضا أشار إليه أيضا في القول الثالث، قال (**وإذن فهم عرب، وقيل إنهم أوزاع من اليمن**) يعني من ولد النعمان بن حمير.

[٢ - هجرة البربر إلى ليبية[2]]

علمت من الفصل السابق أن البربر أمة ذات وحدة جنسية كباقي الأمم التي عرف التاريخ عصبيتها وعظمتها.

وكان موطنها الشام ثم انتقلت إلى ليبية[3]. ونزح أيضا إلى هذا الوطن طوائف من أمم أخرى. وحصل الاختلاط والامتزاج بين جميع سكان هذا الوطن تحت اسم البربرية. وإذ ذاك صارت الأمة البربرية ذات وحدة وطنية مركبة من عناصر متعددة ومفرغة في قالب بربري[4].

ليس العنصر البربري الأصلي أول من عمر ليبية فقد مر في الباب الأول أن أمة سبقت البربر إلى هذا الوطن[5]. وقد عبر ابن خلدون عن البربر في ترجمة الكتاب الثالث من تاريخه إلهام بقوله: "الأمة الثانية من أهل المغرب".

أما الروايات في تاريخ هجرتهم إلى ليبية فكثيرة وأحسنها ما نقله يحيا ابن خلدون عن ابن قتيبة: أن خروجهم كان أيام البلبلة[6]، والبلبلة هي اختلاف اللهجات وتعدد اللغات فكأنه يقول: قبل حدوث الخط والكتابة.

وهذه الرواية متفقة مع ما يقوله متأخرو المؤرخين من أن البربر هاجروا إلى ليبية قبل التاريخ[7]. وهذا عذر من ظن انهم أصليون بهذا الوطن غير منقولين.

هذا حاصل ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

[2] أي إلى منطقة ليبيا.

[3] لأن مكان تواجد الحضارات في أول الزمان هو الشام، وهذا مما لا يخالف فيه، فمهد الحضارات منطقة الشرق، ومن هناك انتقل هذا الجنس إلى هذه الأراضي وهذا سبق الكلام عليها.

[4] له أصله ويوجد فيه أوزاع من الأجناس التي هاجرت من بلدان أخرى ونزلت هذه الأرض.

[5] الذي ذكره في الباب الثاني في سكان هذه البلاد، في العصر الذي سماه العصر الحجري.

[6] بعضهم عبر عنها بلفظ (البلية)، وهو تحريف والصواب (البلبلة).

[7] أي قبل بداية كتابته، على ما فصلناه وشرحناه سابقا.

وقد ذكر عبد الرحمن بن خلدون روايات أخرى نعرض عن بعضها لظهور سقوطه، وننقل بعضها ثم نقفي عليه بما يزيل شبه الاعتماد عليه[8].

١ - نقل عن المسعودي والطبري والسهيلي[9]: "إن إفريقش استجاشهم لفتح أفريقية وسماهم البربر. وينشدون من شعره:

بربرت كنعان لما سقتها *** من أراضي الضنك للعيش الخصيب

٢ - ونقل عن بعضهم: أن يوشع رئيس بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام هو الذي أخرجهم من الشام.

٣ - ويقول بعضهم: إن داوود عليه السلام هو الذي أخرجهم وأن الله هو الذي أوحى إليه بذلك: "قيل يا داوود أخرج البربر من الشام فانهم جذام الأرض".

وقد أبطل ابن خلدون نفسه قول من قال: إن إفريقش هو الذي اخرجهم من الشام إلى المغرب بأن هناك رواية أخرى تقول: "إنه وجدهم به[10] وإنه تعجب من كثرتهم وعجمتهم وقال ما أكثر بربرتكم" وإفريقش هذا من ملوك اليمن التبابعة[11] وهو مختلف في زمنه ففي بعض المواضع من ابن خلدون ما يدل على أنه قريب من عهد موسى عليه السلام، وفي بعضها ما يدل على أنه بعد سليمان عليه السلام وبين هذين الرسولين نحو من سبعة قرون[12]. وذكر ابن خلدون عن ابن حزم: أن التبابعة "في أنسابهم

[8] يعني بعض الروايات في انتقال البربر إلى منطقة ليبية.

[9] كل هؤلاء لهم كتب في التاريخ. لكن أكملها وأحسنها كتاب التاريخ للطبري، فهو أنفعها وأحسنها.

[10] أي بالمغرب.

[11] تُبّع هذا لقب يطلق على من يملك اليمن.

[12] حسب ما يذكره أهل التاريخ، والوصول إلى ذلك صعب، قد نعرف مما جاء في نصوص الكتاب والسنة ترتيب هؤلاء الأنبياء والرسل، أما ماكان بينهم من أزمنة وتعاصر بعضهم لبعض، أو تباعد بعضهم عن بعض، هذا يحتاج إلى نقل، فما بين عيسى ﷺ ونبينا ﷺ نحو من ستة قرون ويزيد قليلا، هذا جاء نص صريح في السنة، لما رواه البخاري في كتاب "بدء الوحي"، وكتاب "بدء الخلق" ولكن غير ذلك يحتاج إلى النص الذي يدل على ذلك، ومنه ما جاء عن ابن عباس ݣ بين آدم ونوح عشرة قرون كلها على التوحيد، كونه ﷺ

اختلاف وتخليط وتقديم وتأخير ونقصان وزيادة" وسواء ارتقى عهد هذا الملك[١٣] إلى ما يقرب من عهد موسى أم تأخر إلى ما بعد سليمان فإن البربر بوطنهم الثاني[١٤] أقدم من ذلك كله وفاقا لرواية ابن قتيبة المؤيدة بآراء الأثريين المتأخرين.

ومن قال إن يوشع هو الذي أجلاهم إلى المغرب فقد أخطأ واشتبه عيه الأمر. ذكر دوماس أن من القبائل التي أضيفت إلى البربر قبائل فلسطينية فرت أمام يوشع وفلسطين وذكر ابن خلدون أنهم إخوان البربر.

وبهذا يتبين ما في هذه الرواية الثانية حيث خلط أصحابها بين البربر وفلسطين.

وأما قول من قال إن داوود ﷺ هو الذي أجلى البربر إلى إفريقية بالوحي فقول ساقط ورواية سخيفة، لأن داوود عليه السلام عاش في القرن الحادي عشر قبل الميلاد، وقد علمت أن الفينيقيين كانوا أسسوا عاصمتهم الأولى عام (١١٠١)، وهم إنما جاءوا بعد الفلسطينيين، والفلسطينيون إنما جاءوا بعد البربر[١٥]. وأيضا فإن البربر ليسوا جذام الأرض، بل هم أمة عاملة نشيطة من أقدر الأمم على تعمير الأرض واستدرار خيراتها. ومن نظر إلى ما كانت عليه إفريقية من العمران المستبحر: مدن عظيمة، مياه مطردة، بساتين متصلة، حقول مزروعة، علم سخافة تلك الرواية التي لم يستح واضعها حتى جعلها وحيا[١٦].

هذا ما نقوله عن تاريخ انتقال البربر إلى ليبية أما ما انضاف إليهم من الأمم فقد كان في أوقات مختلفة يعسر الوقوف عليها جميعها، ومنهم من كانوا جاليات قليلة لا يهتم المؤرخ بذكر تاريخ استيطانهم لإفريقية.

---

[١٣] إفريقش.

[١٤] الذي هو المغرب.

[١٥] فكيف يكون داود ﷺ أجلى البربر؟

[١٦] يعني كونهم طردوا وأجلاهم داود ﷺ وهذا كان بوحي ...الخ، قال هذه رواية بعيدة.

ومن هذه الأمم التي كان لهجرتها إلى إفريقية ضرب من الوضوح أمة الفرس فإنهم نزلوا أفريقية لما مات ملكهم اليوناني، هرقليس. ولم أعثر على تاريخ هذا الملك.

ومنهم الفلسطينيون فقد علمت أنهم فروا أمام يوشع[17]. والمظنون أن يوشع كان في القرن السادس عشر قبل الميلاد[18]. لأن داوود عاش في القرن الحادي عشر. وقد ذكر ابن خلدون أن بين خروج بني إسرائيل من مصر وملك داوود ﷺ (٦٠٠) باتفاق[19]. ويوشع إنما رأس بني إسرائيل بعد خروجهم من التيه الذي مكثوا فيه (٤٠)[20] سنة.

---

[17] يوشع بن نون وهو الذي فتح أرض فلسطين، كما جاء في الحديث وقد مر معنا في رياض الصالحين، وإن كانت رواية البخاري ومسلم لم تذكر اسم النبي، وإنما جاء فيها (غزا نبي من الأنبياء فقال) أي لقومه (من كان بنى بيتا رفع أعمدته ولم يبن سقفه فلا يتبعني ...) الحديث، هذا جاء في رواية أخرى، أن هذا النبي هو يوشع بن نون، وهو فتى موسى ﷺ فهو من الأنبياء ﷺ، وهو الذي فتح بعد موسى أرض فلسطين.

[18] يعني ترجع لقبل ميلاد المسيح ﷺ بستة عشر قرنا ١٦٠٠ سنة.

[19] فإذن داود كان في القرن ١١، بينهما ٦٠٠ سنة إلى الوراء، فيكون تواجدهم ما ذكر عن يوشع ١٦ قرنا قبل ولادة المسيح عيسى ﷺ.

[20] قال تعالى {قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ} هنا وقف عند القراء {أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ}المائدة٢٦، فإذن تقف في {عليهم} يقول العلماء القراءة والتفسير يجب أن تقف على {قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً}، وقفان يسميهما العلماء وقف التعانق، تجده في المصحف يشار إليه بثلاث نقاط على هيئة نقطتين وثالثة فوقهما على هيئة الأثافي، ولهذا في المثل يقال **(ثالثة الأثافي)**، الأثافي هي ثلاثة حجارة توضع وتحتها توقد النار، ويوضع على ثلاثة الحجارة القدر، فإذا نزعت واحدة منها لا يستوي القدر، فجرى مثلا **(هذه ثالثة الأثافي)** يعني إذا أزيلت وقع عدم الاتزان في الأمر.

فهذا الوقف يشار إليه بهذه الطريقة ثلاث نقاط، نقطتان والثالثة فوق في الموضعين، فإذا وقفت هنا لا تقف في الموضع، وإذا لم تقف هنا تقف في هذا الموضع، يسميه القراء **(وقف التعانق)** ويرى العلماء أنه يجب الوقف في هذا الموضع الأول أو الثاني، وإن كان ابن الجزري يقول:

وليس في القرآن من وقف وجب [وفي بعض النسخ "يجب"] *** **ولا حرام غير ما له سبب**

ومنهم العرب اليمنيون قبيلتا كتامة وصنهاجة[٢١] اللتان تركهما إفريقش بأفريقية. وقد علمت ما في زمنه من الاضطراب[٢٢].

[٢١] ابن باديس أصلا الصنهاجي. كتامة وصنهاجة لهما تاريخ عريق سيأتينا.

[٢٢] أي زمن إفريقش متى كان موجودا في هذه الأرض.

فهؤلاء أي جنس البربر فيهم من هذه الأخلاط بحكم مهاجرتهم لهذه الأرض وبقائهم، ومجاورتهم لسكان هذه الأرض.

[٣ - أوصاف البربر وأخلاقهم[٢٣]]

إذا كان للأمكنة دخل في صبغ البشر بما تشاء من الألوان فإن منها أوصافا خَلقية[٢٤] لا بد للأمكنة فيها وإنما ترجع إلى خاصة جنسية[٢٥].

---

[٢٣] الذي يتكلم هو مبارك الميلي رَحِمَهُ اللهُ وهو من هذه الأرض يعرف الأوصاف والأخلاق. ليس أجنبيا!

[٢٤] وأيضا يصح خُلُقيّة.

[٢٥] النبي ﷺ ذكر لمّا خلق الله ﷻ آدم، من أي طين خلقه، ومن أي نوع من الأرض؟ قبض قبضة من جميع الأرض، وأنتم تعرفون أن الأرض تختلف من الأرض التربة والطين والسبخة والرمل والحمى والصخرة والحصى والتي شبيهة بالطين كالصلصال، ومنها الأصفر والأبيض والأسود والأحمر شديد الحمرة، ومنها الصلب ومنها اللين، يعني هو متنوع، فمن جميع الأرض خلق الله آدم ﷺ ونسله جاء منه، فكلٌّ قد ينزعه من هذه الأرض عرق، من كل الأرض خلق آدم، لما خلق الله آدم أخذ الله قبضة من الأرض، من جميعها، فمنها يأتي الناس، تجد في هذا يبوسة، وهذا لين، وهذا قبول، وهذا ميل، وهذا انفتاح، انشراح ..الخ الناس أنواع وأجناس، ولهذا قال النبي ﷺ لما سئل: أي الناس أفضل؟ قال **(أتقاهم)**، فقالوا: ليس عن هذا أسأل، فقال **(الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم)** من هو؟ يوسف ﷺ نبي الله يوسف، ابن نبي الله يعقوب، ابن نبي الله إسحاق، ابن نبي الله إبراهيم ﷺ، فقالوا: ليس عن هذا نسأل، فقال النبي ﷺ **(الناس معادن)** المعادن جمع معدن، والمعدن مأخوذ من العَدَن، وعدَن بالمكان قطن به، واستقر، جنات عدن يستقر فيها من يدخلها، **(الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا)** [أخرجه البخاري (٣٣٨٣)، ومسلم(2378)]، فإذن الناس معادن، لهذا المثل الجاري على اللسان **(شوف الطينة تاعو)** تكون تتكلم مع زيد من الناس، يأتي ذكر فلان، أو خصومة، أو تذكر حال شخص، يقول لك **(على حساب طينته)** أو **(شوف الطينة تاعو منين)** المقصود هو هذا يعني: أي عرق نزعه! من أي طينة هو! فهذه الأرض فيها لمسة في الإنسان.

لعل عبارة المؤلف: لابد، بد بمعنى النفي، يعني ليس للأمكنة فيها أثر وإنما ترجع لخاصة جنسية، يعني جنس هذا البشر، فيكون البد هنا بمعنى النفي، مثل ما جاء في الحديث حديث أسماء بنت أبي بكر في البخاري قالت (أفطرنا على عهد رسول الله ﷺ على إثر غيم ثم طلعت الشمس، فقيل للراوي عنها، وهو أبو الشعثاء قيل له أقضوا ذلك اليوم فقال (بدٌّ من القضاء)، فسرها العلماء على قولين:

١= بد من القضاء، يعني لابد من القضاء.

٢= وقيل بد من القضاء، يعني هل يلزم القضاء؟ كأنه يستفهمه، ليس لازما، فلعل هذا المراد.

والكلام هذا يوضحه اللاحق.

وهذا ما دعا بعض المتأخرين إلى إضافة هذا البحث إلى مواد البحث عن جنس البربر ولكنه وضع للشيء في غير محله وطلب للنتيجة من غير شكلها فإن هذا المبحث إنما يفيد في قرابة الأمم بعضها من بعض لا في أصالة أمة لأخرى[٢٦].

والأخلاق من الأشياء التي تتوارث باتفاق الفلاسفة وإنما اختلفوا في أنها تتوارث عن الأصل أم الوسط، وهذا الخلاف إنما تظهر ثمرته في الأشخاص دون الأمم، لأن الأمة أصلها هو وسطها ومجتمعها[٢٧].

أما أوصاف البربر فمنها أوصاف عامة لكل بربري وهي: أن البربري وجهه معتدل[٢٨]، خط عينيه مستو ليس كبعض الأمم التي يكون خطا عينيها عندما يتلاقيان بالأنف زاوية منفرجة، عيناه غير ناتئتين[٢٩]، أنفه متوسط الطول والعرض، أعضاؤه متناسبة، قوي البنية، مستطيع لتحمل الأتعاب وغير سريع التأثر من تغيرات الهواء، بشرته بيضاء وإنما تؤثر فيها الشمس بالسمرة.

١ - ومن الأوصاف ما يختص ببعض الفرق: ففرقة منهم طوال القامة، مستطيلو الرؤوس والوجوه حواجبهم ناتئة، أنوفهم طوال رقاق. قليلو شعر اللحية[٣٠]، أكتافهم عريضة، خصورهم ضيقة[٣١]، ضعاف البنية. وهذه الفرقة موجودة بكثرة.

---

[٢٦] هذا يرد به على من يزعم في بيان أصل البربر أنهم كذا وكذا، لأنهم على أوصاف معينة، وهذا لا يخالف ما ذكرت سابقا من كون الإنسان على حسب الطينة خلق منها، يعني ما نزعه من عرق.

[٢٧] يعني كون دعواهم أن أصل البربر من أوروبا ونحو ذلك لأن فيهم أخلاق معينة، فهو يقول إن الأخلاق قد تتوارث، وقد يساكن قوم قوما فيأخذون أخلاقهم، ولهذا فإن هذا محل اتفاق أن الأخلاق تتوارث، لكن هل تتوارث من الأصل، يعني الواحد يورّث من يرثه أخلاقه، أم أنها تتوارث من الوسط الذي يعيش فيه، وهذا الخلاف تظهر ثمرته في أشخاص الناس لا في الأمة كلها وجنسها، فيقال مادام هذه الأمة كلها على هذا الخلق إذن هي من هذا الأصل المعين الذي فيه هذا الخلق، هذا مقصوده رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

[٢٨] يعني ما هو طويل ولا متداخل.

[٢٩] يعني ليستا خارجتين.

[٣٠] ليست كثيفة.

[٣١] يعني وسط البدن.

٢ – ومنهم صنف قصير القامة، طويل الرأس وبه عظام ناتئة، عريض الوجه، ناتئ الوجنتين[٣٢]، عريض الأنف، واسع الفم، غليظ الشفتين، ناتئ الذقن، كثير شعر اللحية، عريض الصدر والرفغ.

٣ – ومنهم صنف ربعة[٣٣] إلى القصر، مستدير الرأس، عريض الوجه مستدير الجبهة، غليظ الحاجبين، قصير الأنف، واسع الفم، مستدير الذقن، عريض الصدر. والصنفان الأولان معروفان بالمغرب من قديم الأزمنة. وثلاثتها توجد بالجزائر وتونس، والثالث منها مشهور بجربة ومزاب.

وأما أخلاق البربري مطلقا فإنه فلاح مقيم[٣٤]، عامل كناز[٣٥]، تاجر حاذق[٣٦] حربي شجاع، وقد يكون لصا متردا[٣٧]، حار ينتقم ممن اغضبه بأكثر مما يستحق[٣٨]. حر متطرف في الحرية إلى درجة أنه يكره الرئاسة عليه[٣٩] ويتقزز منها إلى أن تسنح له الفرصة لهدم تلك الرياسة وتخريب سلطانها[٤٠] فخور

---

[٣٢] الخدان.

[٣٣] متوسط.

[٣٤] إذا قيل لك في دراسة نص: هات ضدّ مقيم؟ "حرّاق". فلاح مقيم في بلده، بلده واسعة شرقا وغربا شمالا وجنوبا لا داعي أن "يحرق".

[٣٥] عامل يعمل، كناز جامع، يجمع الثروة.

[٣٦] من الذكاء والفطنة والنباهة والدهاء، وهذا كله سيأتينا في التاريخ اللاحق، ما يمر عليه من حوادث ..الخ.
قال لي أحد علمائنا توفي وهو الشنقيطي- عالم سياسي كبير في دولته قديما وكان وزير الخارجية عالم نحرير، قال (**لا أعرف في العالم ثورة وجهاد كثورة الجزائر**) وقد حيّرتْ كثيرا من الناس، وفرنسا وما أدراك في ذاك الوقت كانت رتبتها مع أمريكا الثانية ولم تتفطن لأصل الثورة هذه وحقيقتها وطريقتها كيف تسير إلا بعد نحو ثلاث سنوات أو أزيد، عرفوا طريقة الثورة والعملية كيف تتم، وهي غاية في السرية لا يعرفها أحد، يعني صعب أن تصل إلى رأس الخيط.

[٣٧] يوجد نزعات الشواذ، اللص هو المعتدي الذي يعتدي ويسرق وينهب متمردا.

[٣٨] وهيه فينا والله المستعان، ولكن قال النبي ﷺ (إنما العلم بالتعلم وإنما الصبر بالتصبر، وإنما الحلم بالتحلم، من يعفو يعفو الله عنه، ومن يسمح يسمح الله عنه، ومن يتصبر يصبره الله) [أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث(68)].
(**حار ينتقم ممن اغضبه بأكثر مما يستحق**) وهذا ما ينبغي لابد من التخلق بأخلاق الإسلام.

[٣٩] لا يحب أحدا يترأس عليه.

[٤٠] وسيأتي معنا لاحقا ذكر أمثلة على هذا واقعية من تاريخ هذه الأمة.

بأصله وعشيرته[٤١]، هائم بمسقط رأسه حتى إذا فارقه لضرورة بقي حنينه إليه لا يضعف منه طول الاغتراب بل يزيده قوة التهاب فمتى أمكنه العود عاد إلى وطنه[٤٢].

وهذه الأخلاق ترشد إلى أن البربري محب لجنسه ووطنه[٤٣] مستكمل لصفات العمل[٤٤] لسعادتهما ودفاع الأجنبي عنها، أو على الأقل عدم الرضى من سلطته ولو طال أمدها[٤٥]. وقد ذكر بيروني- وعنه أخذنا مادة هذا الفصل[٤٦]- أن من أخلاق البربري كونه شحيحا جلفا منقادا للخرافات ومؤثرا لها[٤٧].

---

[٤١] يعتز.

[٤٢] هذه صفتنا، البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ أيام الثورة ولما اندلعت كان يسعى في البلاد لنشر أخبار هذه الثورة وأيضا جمع المال لها ...الخ، فكان أن ذهب إلى باكستان، نزل في فندق فبينما هو خارج إلى الحمام أو في درج سقط سقطة فادحة فتكسرت تقريبا جميع عظامه، فاضطروا تغطيته بالجبس، فضلّ شهرين أو أكثر ممتدا لا يتحرك حتى تلتئم تلك الكسور، هذه يحكيها أحد تلامذته اسمه بشير كاشة -هذا أحد تلامذة البشير الإبراهيمي وكان يدرّس وفي سنة ١٩٥٠ تقريبا كان يدرّس بالمعهد العلمي بالرياض، فهو يحكي عنه- فقال الشيخ البشير الإبراهيم أن الشيء الذي يحترق عليه قلبه ويتمزق هو أنه لا تصله أخبار ثورة التحرير، وأخبار الجزائر، هذا الشيء الذي يحز في نفسه.

هذا إشارة إلى قوله (**لا يضعف منه طول الاغتراب**) مهما اغترب فحنينه إلى بلده قوي، بل يزداد قوة.

[٤٣] لا أن ينزل إلى فرنسا فيطلب الجنسية، ينزل هناك يأخذ الجنسية ثم يتملص، هذا الجنس الذي طلع علينا والله المستعان.

[٤٤] ليس كسولا، بطالا.

[٤٥] ولهذا لن تجد شخصا أحب فرنسا، مكثت عندنا ١٣٢ سنة، ما كانوا يحبونها أبدا، مستحيل، ولهذا لما احتفلت فرنسا بالمائة سنة على مرور بقائها في هذا البلد ١٩٣٠م، احتفلت على أن مر عليها مائة سنة، قرن، الجزائر صارت فرنسية لا وجود للمساجد، الوجود للكنائس فقط، ماذا فعل ابن باديس رغم تلك الظروف القاسية وقلة ذات اليد، أنشأ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ليبين لها أنه يستحيل أن يكون هذا الذي في ذهنها، وكان من أشغاله الشيء الكثير، ومنه قوله:

شعب الجزائر مسلم * وإلى العروبة ينتسب**
من قال حاد عن أصله * أو قال مات فقد كذب**

[٤٦] هذا من أمانة المؤلف رَحِمَهُ اللهُ.

[٤٧] هذه أخلاق قد توجد، الشح أي البخل، الجلف الشدة، منقاد للخرافات يتأثر بها وهذا موجود، شخص تصله ورقة وفيها إذا لم تكتبها أربعين مرة تطرد من الوظيفة، فيكتبها في الحين، حتى إذا لم يكن يتقن الكتابة فإنه سوف

وهذا من هناته[48] فان كونه شحيحا جلفا خلاف الواقع المشاهد والمتواتر والمسطر في كتب التاريخ، وسترى ما يقوله ابن خلدون عنهم من صفات الكمال، وهو رجل[49] عرفهم وعاشرهم في أواخر أيام عزهم ودخل بجاية إحدى عواصمهم.

وأما انقيادهم للخرافات وإيثارهم لها فهو واقع مشاهد في زمننا هذا ولكنه ليس من طبيعتهم بل من طبيعة الجهل الذي ثأر منهم وبالغ في الانتقام وأمدته في ذلك عوامل من الأيام[50].

وقد كان منهم قبل اليوم عظماء في العلوم والمعارف. منهم يوغورطة الموجود قبل الميلاد، أبدى في كفاحه للرومان مقدرة فائقة في الحرب والسياسة، ومنهم يوبا الثاني الموجود قبيل الميلاد، كان من أعظم الفلاسفة وأمهر المؤلفين، ومنهم القديس أوغسطين الموجود في عصر الانحطاط الروماني، كان نادرة الوجود علما وفصاحة وتقوى وإخلاصا وتفانيا في خدمة دينه وجنسه وغير هؤلاء كثير قبل الإسلام منهم من قصهم علينا التاريخ ومنهم من لم يقصصهم علينا[51].

يتقنها، أو يصور عليها نسخا، هذا تأثر بالخرافات، ومؤثرا لها يعني يقدمها. قالوا جاء شخص من العراق هو في الشرق، عنده شعر النبي ﷺ الناس إليه زرافات ووحدانا، يدخل أحدهم فيضع ١٠٠٠٠دج والآخر ١٠٠٠دج والآخر ٢٠٠٠دج ..الخ، من أجل أن يمسها فقط، حقيقة لو كان شيء من آثار النبي ﷺ باقيا، فإننا نتبرك بذلك، كما كان الصحابة والحديث في البخاري، كان إذا امتخط تشاوروا عليها أيهم يأخذها، إذا شرب تبعوا سؤره، إذا توضأ مروا بالإناء فكل يضع يده ويأخذ منه، وكذا كما جاء في الحديث الذي خرجه ابن حجر في بلوغ المرام (**أنه كان عندهم شيء من لباسه** ﷺ) فكان إذا مرض المريض يمسح به، فالتبرك بآثاره ﷺ هذا مشروع، والأحاديث في ذلك كثيرة لكن هذه الآثار هل بقيت حقيقة؟ هل دعوى من يدعي ذلك ويقول هذه الشعرة هي شعرة النبي ﷺ نقول: من أين أتيت بها؟ لا بد من شيء يقين.

[48] الهنة هي الخطأ والغفلة. وهنا يرد على المؤلف البيروني وليس على البربر، الأوصاف التي ذكرها البيروني يعلق عليها العلامة مبارك الميلي.

[49] يعني ابن خلدون.

[50] فصفة الشح والجلف لا يوافَق عليها البيروني كما قال العلامة مبارك الميلي، أما الخرافة وإيثارهم لها، هذا الواقع يدل عليه لكن ليس هذا طبيعة في أصلهم، وإنما شيء طرأ عليهم للجهل، وطول مدته، وأشياء مثل ذلك

[51] يعني لم ينته خبرهم إلينا.

أما بعد الإسلام فيكفي المرتاب أن يلقي نظرة على بعض عواصمهم التي كانت من عواصم العلم الكبرى مثل تيهرت وبجاية وتلمسان هذا بالقطر الجزائري فقط[٥٢]. ولا أطيل بذكر المدن الثانوية بله الرجال العظام.

ودونك ما يقوله ابن خلدون عن أخلاق البربر باختصار وتصرف لفظي[٥٣]: وأما تخلقهم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم في الخلال الحميدة وما جبلوا عليه من الخلق الكريم فلهم في ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف. لو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيهم من الأمم[٥٤].

---

[٥٢] تيارت عاصمة من عواصم العلم، وفيها من كنوز العلم الشيء الكثير، لكن عفت ديارها وآثارها وذهبت، وصارت في هذا الزمن إنما تعقد فيها أشياء مما يسخط الله تعالى.

وبجاية عاصمة من عواصم العلم، حقيقة لو جمع ما في بجاية من المعاهد ومن العلماء ومن فنون العلم الشيء الكثير، مما كتب في هذا كتاب "عنوان الدراية في ذكر علماء وأولياء بجاية" لمؤلف جزائري من بجاية أيضا لقبه الأخير الغُبريني، وهذا كتبه في القرن السابع الهجري تقريبا، بجاية بلد العلم والعلماء، وكانت منبعا للعلم ويخرج منها كبار العلماء، ومن أول من ألف ألفية في النحو "ابن معطي" أول من ألف الألفية قبل ابن مالك، يقول:

يقول راجي عفو ربه الغفور * يحي بن معط ابن عبد النور**

له ألفية مطبوعة، وهو الذي قال فيه ابن مالك:

.... * فائقة ألفية ابن معطي**

وهو بسبق حائز تفضيلا * مستوجب ثنائي الجميلا**

أجاب بعضه قال: والحي يغلب ألف ميت! لمّا تقول: فائقة ألفية ابن معطي، ابن معط ميت فقل أنت فائقة، فقال: والحي يغلب ألف ميت.

الحاصل أن ابن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمّا ألف كتابه هذا أشار إلى ألفية ابن معطي، فهو أول من ألف وكتب ألفية ابن معطي، وكذلك غيره من العلماء في فنون كثيرة، في القراءات كذلك كتب كثيرة، في جمعها وفي مفرداتها.

وتلمسان وما أدراك ما تلمسان، بلاد العلم.

[٥٣] يعني هذا ما يقوله ابن خلدون في تاريخه مع تعبير العلامة مبارك الميلي.

[٥٤] هكذا يقول ابن خلدون في تاريخ هذا البلد، وسكانه، لهم فضائل إنسانية، وتنافس في الخلال، جمع خُلة التي هي الصفات والنعوت، الحميدة التي تُحمد، وجبلوا على الخلق الكريم، وهذا لو كتب وسطّر لكان مثلا يقتدى به، تقتدي بهم الأمم الأخرى.

فمن خلقهم عز الجوار[٥٥] وحماية النزيل[٥٦] ورعاية الذمة[٥٧] والوفاء بالعهد[٥٨] وبر الكبير[٥٩] وتوقير أهل العلم[٦٠] ورحمة المسكين وحمل الكل وكسب المعدوم وقرى الضيف[٦١] والصبر على المكارم والإعانة على النوائب[٦٢] ومقارعة الخطوب[٦٣] وإباية الضيم[٦٤] ومشاقة الدول[٦٥] وقد أطال ابن خلدون في هذا الغرض ولكنا اقتصرنا على ما إليه الحاجة أمس[٦٦].

---

[٥٥] يعني لا يفرط فيمن يجاوره من السكان ومن الغرباء، يعز عليه أن يعتدى على الجوار، فيحترم حق جاره القريب والبعيد.

[٥٦] الذي ينزل عندهم يحمونه، ويدافع عنه ولا يفرط فيه.

[٥٧] يعني إذا تحمل شيئا كان رجلا كما يقال، إذا تحمل شيئا يؤديه ويوفي به، ويرعاه، ولا يخدع فيه أو يغدر.

[٥٨] لا يغدر.

[٥٩] احترامه وتوقيره ويعرف حقه

[٦٠] هذا أمر عظيم عندهم، انهم يوقرون أهل العلم.

[٦١] وهذه كلها من الصفات العظيمة، ولهذا لما جاء الإسلام رحبوا به، وفتحوا أيديهم على ملئها وسعتها، وقالوا: حي هلا فقد نزلت أهلا وحللت سهلا، لم يرفضوا الإسلام أبدا لما فيهم من أخلاق هي فيهم، خلافا ما يدعيه بعض من انجر وراء دعوات فارغة، والله المستعان.

[٦٢] جمع نائب وهي ما يصيب الناس.

[٦٣] الأمر الخطير الذي يحل فإنه يقارعه ويدافع ويصمد.

[٦٤] ضامه يضيمه كضربه يضربه، والضيم الظلم. فيأبى الظلم.

[٦٥] لعله يقصد أن يكون هو شق دون دول أخرى، المشاقة تأتي بمعنى المعاداة، وتأتي بمعنى أن يكون في شق دون الدول الأخرى. وهذه اللفظة تحتاج إلى مراجعة.

[٦٦] لعلنا نكتفي بهذا القدر، والله تعالى أعلم.